

مكتبة البنين
قسم الدوريات



حولية

مكتبة البنين
والملفوظات الجاهلية

غير مفسح بأعارتة من المكتبة

العدد الخامس

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الرُّسُولُ

في الأدب العربي الحديث

الدكتور

ساهر حسن زهمي

أستاذ بقسم اللغة العربية

عندما نتحدث عن الرسول في أدب التراث العربي ، نجد فرعين ناشرين نجد المدائح النبوية في الشعر ، ونجد أيضاً السيرة النبوية في النثر ، لأن السير تعد فرعاً من فروع الأدب من حيث منهج العرض وذلك على الرغم من المادة التاريخية للسيرة ، بمعنى أن السير التي تعرض مادتها عرضاً فنياً أو موشحاً بالشعر وتفتت المادة التاريخية إلى مواقف من الحوار يمكن تصنيفها في باب النثر الأدبي ، تحت عنوان : السير والتراجم . ومعنى هذا أن الرسول قد أثر في أدب التراث ، فتناوله من زاويتين : الحياة بما فيها من تجارب وقيم ، ثم المديح وقد أفرد له الشعر فصلاً خاصاً . وعندما نريد الحديث عن الرسول في الأدب العربي الحديث يجب أن ننظر إلى الفرعين السابقين ، ونحاول أن نتبع اتجاهاتهما : إلى أي حد استمر فرع السير في العطاء وما الجديد فيه ؟ وإلى أي حد استمر فرع المدائح النبوية وماذا جد فيه بحكم طبيعة العصر ؟ ومن خلال هذين السؤالين يمكن أن تتسع الرؤية في تناول .

والواقع أن الأدب النبوي قد ازدهر ازدهاراً واضحاً في ثلاث فترات : الفترة الأولى فترة الدعوة الإسلامية نفسها ، ومدائح الأعشى وكعب بن زهير وحسان بن ثابت وغيرهم مشهورة . وكان الرسول في تلك المرحلة يوجه الشعراء إلى الدفاع عن العقيدة ورد هجوم المشركين في فترة صراع بين الإسلام والشرك نكون أو لا نكون . وقد قام الشعر بدوره باعتباره سلاحاً من أسلحة الدعوة ، فكان كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وعبد الله بن جحش يردون على شعراء مكة أمثال ابن الزبيري وضرار بن الخطاب ويرفعون

سلاح الكلمة البليغة . وقد سجل ابن هشام في فترة التدوين سيرة الرسول ، وتعد هي والسيرة التي بنى منها ابن سعد الجزأين الأولين من كتاب الطبقات الكبرى وبعض كتب المغازي ، والحديث ، أساساً للمعلومات المقررة عن حياة الرسول .

والفترة الثانية هي فترة الحروب الصليبية ، نكون أو لا نكون أيضاً . عادت المدائح النبوية وعلى رأسها بردة البوصيري وشروحها وتضمينها ومعارضتها ونشأ فن البديعيات ومن أشهره بديعية ابن حجة الحموي التي سماها مع شرحها « خزنة الأدب » ، كما ظهرت دواوين بكاملها في مدح الرسول (١) وألف ابن الجوزي الوفا بفضائل المصطفى في سيرة الرسول واتجه كتاب « الدلائل » أمثال أبي نعيم والبيهقي إلى إثبات أكثر ما يمكن من المعجزات وربما كان العالم الإسلامي في حاجة إلى ما يشبه المعجزة ليتشله وكان ظهور هذين الاتجاهين عودة إلى النبع المحمدي وقت الشدة أو القوة في الجهاد والأمان النفسي .

أما الفترة الثالثة فهي العصر الحديث وهو عصر التحدي الأكبر ، نكون أو لا نكون مرة أخرى ، ولكن الغزوة المعاصرة استعمرت الوطن الإسلامي مدة من الزمن ، ولم يبعد قبضتها عن عنقه إلا بشق الأنفس ، وما زالت القبضة على اقتصاده وفكره يحاول الخلاص منها ، ولذلك تعود المدائح النبوية قوة دافعة من جديد ، وتعود السيرة النبوية مثلاً أعلى وقدوة يتبعها السائرون ، وكما ظهرت البديعيات باعتبارها تجربة جديدة في المدائح النبوية كان لا بد أن نتوقع ظهور لون جديد أيضاً بحكم التطور الفني المعاصر .

إذا كنا نعتبر البارودي رائد الشعر العربي الحديث ، فينبغي أن يكون نقطة انطلاقنا في المدائح النبوية المعاصرة أيضاً ، وليس معنى هذا أن الشعر العربي في القرن السابق على البارودي قد خلا من المدائح النبوية وإنما معناه أن تلك المدائح سقطت في الزخرف والضعف الفني إلى حد بعيد (٢) والفارق واضح بينها وبين ميمية البارودي ومطلعها :

يارائد البرق يمم دارة العلم واحد الغمام إلى حي بنى سلم

(١) اهني المنائح واسنى المدائح للشهاب محمود ، بشرى اللبيب بذكر الحبيب لابن سيد الناس اليعمرى .

(٢) راجع على سبيل المثال ميمية الساعاتي التي حشد فيها مائة وخمسين نوعاً من أنواع البديع ومطلعها يشير إلى براعة الاستهلال .

سفع الدموع لذكر البان والعلم أبدي البراعة فأ استهلاله بدم .

وقد ضمنها سيرة الرسول منذ ولد إلى أن توفي وبنائها على سيرة ابن هشام كما يقول في مقدمة القصيدة (١) ، وإن كان من الواضح أنها معارضة لردة البوصيري :

أمن تذكر جيران بندي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ولكن متابعة السيرة ومعارضة البردة في نفس الوقت قد أضعفا من القيمة الفنية للمطولة وجعلها أقرب إلى السرد التاريخي ، وإن امتازت بوصف الغزوات وصفاً حياً ، وذلك يرجع إلى طبيعة البارودي الذي خاض غمار الحروب . ومن الواضح أنها قيلت بعد الاحتلال ولذلك جعل عنوانها « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » ثم يحيي أحمد شوقي فيعارض بردة البوصيري أوائل القرن العشرين بقصيدته المشهورة :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى في الأشهر الحرم

ويسمىها نهج البردة ويضمها إلى بقية مدائحه النبوية ، ولشوقي غير البردة « ذكرى المولد » ومطلعها :

سلوا قلبي غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا
ثم الهمزية النبوية ومطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

إن دراسة المدائح النبوية بصفة عامة توضح أن البوصيري قد وضع أساسها الذي لم يستطع الشعراء الإفلات منه بدأ بالغزل وليس غريباً أن يبدأ بالغزل فقد بدأ به من قبل كعب بن زهير وهو تقليد في موروث لبناء القصيدة . ولكن البوصيري يتخلص من الغزل إلى الحديث عن النفس التي لا تود أن ترتدع على الرغم من نذير الشيب وبطيل لومه للنفس التي اكتفت بالفروض وقنعت ، ولم تهتم بالسنة المحمدية الاهتمام الواجب ، ومن هذا المدخل يبدأ حديثه عن الرسول . فيذكر الظواهر الكونية التي صاحبت مولده كتصدع إيوان كسرى كأنه رمز لتصدع الظلم أما خمود النار فرمز لخمود الشرك إيذاناً بمولد الحق ، وقد تبعها كل شعراء البديعيات والمعارضات لردة البوصيري ، وإن كانوا جميعاً قد أبرزوا بصفة خاصة المعجزة الباقية وهي القرآن الكريم . ومن الواضح أن البوصيري ومن تبعه قد

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٠

تأثروا بالسيرة النبوية ، فتناولوا الإسراء والمعراج باقتضاب حيناً وبإطناب حيناً آخر باعتباره التكريم الأكبر للرسول ، والهجرة باعتبارها الخطوة الحاسمة في تاريخ الدعوة ، والجهاد من أجل العقيدة ، ولكن شوقي يقف عند الجهاد ليعرض رؤيته في قضية انتشار الإسلام بالسيف وهي قضية معاصرة أثارها المستشرقون ، كأن المسلمين قد نسوا ما صنعه أهل أوروبا بأندلس العرب وقد فند مفكرو المسلمين هذه الدعوى على أساس استحقاق الكافرين العقاب من الله لهم في الدنيا والآخرة وأن الأنبياء السابقين الذين ورد ذكرهم في العهد القديم قاتلوا الكفار وأن الجهاد في الإسلام لا يعني الإكراه على الدخول في الإسلام ، وأن الجهاد في الإسلام يمتلئ بصور الرحمة التي لا مجال للموازنة بينها وبين وحشية الحروب الدينية الأخرى (١) . ولذلك نحس انفعال شوقي في تناوله لهذا الاتهام :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا	لقتل نفس ولا جاؤا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة	فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به	ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغراء كم شربت	بالصاب من شهوات الظالم الغلم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها	بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم (٢)

ومن الطبيعي أن تكون الخاتمة واحدة في أغلب القصائد لأن الهدف واحد من المدائح النبوية يتلخص في الشفاعة له وللمسلمين عند باري الخلق .

معنى هذا أن المدائح النبوية ظلت موصولة مستمرة قروناً طويلة تحمل إضافة أجيال وروية أجيال ، وعلى الرغم من خفوت صوتها حيناً إلا أنها بقيت قادرة على العطاء تنبض بالحياة في فترات الشدة ، تمنح الإحساس بالأمان وتكمن فيها قوة دفع كبيرة بما تقدمه من قيم سامية ومثل عليا نحن في أشد الحاجة إليها . فالعودة إلى نبع الإسلام الأول وأصوله ، هي الملاذ من التخبط الفكري ، وفي ذلك يقول أحمد محرم :

سن النبي لنا أيام هجرته من صادق العزم شرعاً غير مجهول

(١) راجع « الرسول لسعيد حوى » ص ٣٨٧ .

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٢ .

مضى على الحق لم تعصف بهمته ريح الضلال ولم يحفل بتهويل
والنفس تغلب إن صحت عزيمتها فك الجيوش وتدمير الأساطيل (١)

ويدور حول هذا المعنى كثيرون من الشعراء أمثال محمد مصطفى الماحي وحسن عبد الله القرشي وبدوي الجبل وعمر أبو ريشة ومحمود فضل إسماعيل الذي خصص من ديوانه خمسين صفحة جعل عنوانها « من وحي السيرة النبوية الشريفة » وغير هؤلاء من الشعراء الذين نضج أكثرهم في النصف الأول من القرن العشرين فخلال تلك الفترة حدثت أحداث جسام أهمها الغزوة الصليبية الثانية أوائل هذا القرن التي انتهت باستعمار الوطن الإسلامي ثم الهجوم على الإسلام وعلى رسوله من دوق داركور وهانوتو إلى الفرد جيوم ولذلك كان الرد من محمد عبده ورحمة الله بن خليل الهندي في كتابه « إظهار الحق » إلى أحمد شلبي ، رداً شافياً تناولوا فيه إقامة الحججة على هجوم المستشرقين عن طريق تناول أخلاق الرسول وكمال شريعته وانتصاره وحاجة الناس إليه وإلى شريعته ومعجزاته وتبشير الأنبياء به .

يقول أحمد شلبي : « قال محمد ﷺ إنه خاتم النبيين ، ومرة بعد ذلك القرون تلو القرون ولم يأت رسول بعد محمد وقد كانت الرسائل قبله يتلو بعضها بعضاً دون حدوث فترة زمنية طويلة بل كان بعضها يعاصر بعضاً ، كما حدث بالنسبة لإبراهيم ولوط وبالنسبة لإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبالنسبة لشعيب وموسى ، وبالنسبة لزروريا ويحيى ثم جاء محمد وقال إنه خاتم الأنبياء والرسول وصدقه الواقع أربعة عشر قرناً وليس مثل ذلك دليل .

« ومس التحريف والنسيان كتب الأنبياء السابقين ، وجاء محمد ولم تكن المدنية قد ازدهرت ولا الكتابة قد انتشرت ولكن محمداً قال : إن الله سيحفظ القرآن الكريم من كل ضياع أو تحريف (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) « سورة الحجر الآية التاسعة » ، وحفظ القرآن الكريم دون ضياع أو تحريف . « ولنسر خطوة أخرى أكثر تفصيلاً حول هذا الافتراض الأبله وهو عدم صدق محمد ، فقد قال : إني رسول الله ، أرسلني بشيراً ونذيراً ، وقال : إن رسالتي تشمل البشرية كلها ، وقال : إن رسالتي تنظم شئون الدين وشئون الدنيا ، شئون الروح وشئون الجسم ، شئون الفرد وشئون الجماعة . هل صدق محمد فيما قال ؟ وهل ملاً الفراغ الكبير الذي قال إن دعوته ستشمله ؟ كيف يدعي رجل مثل هذه الدعوى

(١) ديوان محرم ج ٢ ص ١٩٥ .

وتعيش دعوته ؟ ما هدفه وما آماله ؟ ونسير في بحث السؤال الأول فنذكر أن كثيرين ادعوا النبوة وحاولوا أن يأتوا بمعجزات ، ادعاها الأسود العنسي وادعاها طلحة وادعتها سجاح ، ولكن كل من هؤلاء كانت دعوته مهلهلة وكان عمرها قصيراً - انزل بين جماعة وادع أنك معلم أو مهندس أو رجل قانون أو حتى زارع أو طباطخ أو حلاق ولست كذلك ، لا شك أن أمرك سينكشف بعد قليل وسيطاردك أولئك الذين قد يندعون بك . هل النبوة أقل من ذلك ؟ اللهم لا ، إنها مسئولية خطيرة ودعوة عريضة ، وهي امتحان قاس وتعال بنا إلى السؤال الثاني : ما هدف محمد ، هل أراد المال ، هل أراد الجاه ، هل حصل على شيء لنفسه أو لذويه ؟ الإجابة واضحة يقصها علينا التاريخ ، فقد كان محمد قبل البعثة غنياً بمال زوجته ، ولكنه رهن درعه عند يهودي في قوت أهله قبيل وفاته ، وقد أراد قومه على المال وعرضوا عليه الجاه ولكنه أبى وقاسى من أجل النبوة ألواناً من العناء وماذا حصل لذويه ؟ لقد وضع حداً لما يقال عن جلب النفع فقال قبل موته : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة ، وهكذا حرم أهله من ميراث يناله جميع الناس ، ويبرهن على أنه إنسان ليس لأهله وإنما هو للمسلمين ، حياته لهم وموته لهم وكفاحه من أجلهم دون هدف ذاتي أو منفعة خاصة « (١) .

وقد ركز الشاعر المعاصر على عناصر معينة من السيرة النبوية كأنه يرد هذه الاتهامات إلى النحور :

وأطل نور محمد من شرعه للدين والدنيا هوى وصلاح
وعلى خطاه نمت أصول حضارة هي للخلود وللعلا مفتاح
لا وحي بعد محمد وكتابه الحق أبلج والشموس وضاح (٢)

ومادام قد رد على الموقف الأول وبين أن محمداً خاتم النبيين ، فلينتقل إلى الموقف الثاني ليسجل معجزة القرآن الخالد الذي لم يصبه تحريف ولا تبديل مع توالي السنين وصلاحه لكل مكان وزمان :

المعجزات وحسبك القرآن معجزة الخلود
قد صانه الرحمن من عبث وزيف أو جمود

(١) محمد نظرة عصرية جديدة ص ٥٤ .
(٢) ديوان نداء الحق لأحمد محمد الصديق ص ١٧٩ .

لم يبق إلا نوره الوهاج في هذا الوجود
أما سواه فقد مضى وأصاب شعلته الحمود (١)

وفي قصيدة بعنوان « الإسراء والمعراج » يتناول الشاعر نفسه أكثر من موقف ، موقف العذاب الذي لقيه الرسول في دعوته :

وثقيف الرعناء صنو قريش ضل فيها الأشراف والسادات
تطرد الطائف النبي جحودا وبه يسخر الطعام العتات
والرسول الكريم يرجع مهموماً وأصحابه لقي وشتات
وأديم الصحراء في هدأة الليل فم مغلق وأرض موات (٢)
ثم يتناول الإسراء والمعراج باعتبارها معجزة أولاً ثم باعتبارها تكريماً وجزاء لمعانة
الرسول وصبره على المكاره من أجل دين الله :

لحظة والبراق يهبط في الباب وجبريل ممسك بعنانه
قم حبيب الرحمن لا تأس وهب النبي من أحزانه
واعتلى سهوة البراق وقد أودع سراً في قلبه وكيانه
ورنا فالوجود دلوحة إبداع عظيم في عينه وجنانه (٣)

ومن هذا الدرس ينتقل إلى حال المسلمين اليوم كأنه يلوح افتراقنا من ناحية وتكالبنا على
الملذات من ناحية أخرى وتخلفنا في كل جانب من جوانب الحياة فما أحوجنا إلى جهاد
كجهاد الرسول وصبر كصبر الرسول المعلم والقائد :

يا حبيب الرحمن لو كنت فينا اليوم أنكرت أمة الإسلام
كثرة لو ترى ولكن قليل في مجال الإصلاح والإقدام
شيع البغي والضلالة تمشي بيننا بالفسوق والآثام
غير الدهر غيرت يا رسول الله منا ورث جبل الذمام (٤)

(٢) ص ١٨٥

(٤) ص ١٨٩

(١) ص ١٨٣

(٣) ص ١٨٦

وشعر الصديق نموذج من نماذج الشعر العربي الإسلامي في الخليج ولا أدعي أن الشعر العربي الإسلامي في الخليج له مذاق خاص ولكنه يمثل شعلة متوقدة نجد نورها في ديوان خالد الفرج الشاعر الكويتي وفي دواوين عبد الرحمن المعاودة الشاعر القطري وأحمد محمد الخليفة الشاعر البحريني . وأحمد محمد الخليفة شاعر رومانسي ، ولذلك نجد المذاق الرومانسي في شعر المولد النبوي ونقصد الشعر المغموس في وجدان الشاعر الهامس الموسيقي المجنح الخيال . وإذا كان شوقي يبدأ قصيدته قائلاً : (ولد الهدى فالكائنات ضياء) فإن شاعرنا الخليفة يبدأ بمقدمة وجدانية كلها تعبير عن رؤى الشاعر الرومانسي :

عانقي المجد واهزجي يا صحاري واستفيقي وطاولي الأقمارا (١)
 واسكبي الضوء في مواكب هذا الليل بشرا ونضدي الأزهارا
 واحملي معزف اللقاء وغني واجعلي الليل يستثير النهارا
 إنه مولد النبي فحسب الرو ض أن يهرق الشذا المعطارا

إنه معجم جديد تسمع فيه الأهازيج والموسيقى وتشم الأزهار والطور وترى مجموعة من الصور القرية : صورة الصحاري تطاول النجوم ، والضوء ينسكب ، والألق المسحور يوشي الكثبان ، والعطر ينداح ، وكلها صور من معجم الرومانسيين . ويستمر في القصيدة حتى يختتمها كما بدأها بنفس المذاق . فإذا اختتم شوقي قصيدته بالدعاء :
 « ما جئت بابلك مادحاً بل داعياً ومن المديح تضرع ودعاء » « أدعوك عن قومي الضعاف لازمة ، في مثلها يلقي عليك رجاء » قال شاعرنا :

حلم طاف بي يمثل ركبا حل بالسفح ساعة ثم سارا
 ايه يا ركب أي رجع حذاء بالترانيم أخرجل الأوتارا
 لم يزل في مسامعي منه شذو يستفز التاريخ والتذكارا
 كلما مثلته أشواقى الحرى حيالي طوى الروى وتوارى
 أتلقاه خاشعاً بجفون يبعث الشوق دمعها المدرارا
 يا نبي الهدى لدينك ضوء ان دجا الليل يرشد الأبصارا

(١) هجير وسراب ص ١٢ .

وهكذا انتهى نائراً أضواءه التي تبدد ظلام أيامنا وفي وسطها يتجلى نبي الهدى مشيراً إلى الدرب . وهكذا الشأن في قصيدته « إسرائ محمد » التي مطلعها « أي ذكرى علوية الإيحاء بعثت ريق السنى في دمائي » (١) وقصيدة « تحية العام الهجري » (٢) التي مطلعها « يا هلال لاح في الأفق البعيد - أنت نجوى الروح والقلب العميد » ، وهو لا يقول : « نسفوا بناء الشرك فهو خرائب ، واستأصلوا الأصنام فهي هباء » (٣) فذلك تعبير تقريرى ولكنه يسقي دنيا الظلام من كأس قطر فيه نور الحق :

حتى تعرت له الدنيا بأجمعها وأظهرت للفتى الهادي خوافيها
فسلسل الوحي في أجزائها ومضى بالنور في حالك الظلماء يسقيها (٤)

والواقع أن الرومانسيين قد بعدوا عن شعر المناسبات بصفة عامة ولذلك لم نعد نجد مثل هذه العناوين : مطلع العام الهجري ، حديث الإسرائ والمعراج ، حلول شهر رمضان ، فقد انكب الشعراء على ذواتهم وراحوا يخللونها ، ولكن بقي ميلاد الرسول وبقيت هجرته ، وظلت سيرته في مواقفها العديدة تثير وجدان الشاعر المسلم ، والتطور الذي حدث لمسناه في شعر محمد أحمد الخليفة أو في شعر محمود حسن إسماعيل أو غيرهما من شعراء هذا الاتجاه الرومانسي ، ولذلك نجد ديواناً مثل « نار وأصفاد » لمحمود حسن إسماعيل تحمل قصائده هذه اللافتات : نبي الحرية ، قصة ظلام ، جنازة الوثنية ، الفارس المنحدر « سراقه » ، نشيد الغار ، النور المهاجر - على أن الأمر ليس أمر عنوان وحسب ، ولكن بنية القصيدة نفسها تطورت ، وقد رأينا بعض الظواهر عند محمد أحمد الخليفة ، أما بقية الظواهر فنراها في شعر محمود حسن إسماعيل .

ويك يا نار أي سر حبيس
في لظاك رآه أهل المجوس
زمزموا بالصلاة والتقديس
وأراقوك في شعاب النفوس

خمرة الحب من يدي إبليس ثم طافوا حول اللهب سكارى

- (١) من أغاني البحرين ص ٣٨ . (٢) هجير وسراب ص ١٨ .
(٣) الشوقيات ج ١ ص ٤٢ . (٤) هجير وسراب ص ٢٠ .

أعجز المشركين منه بيان
كبرت من جلاله الأزمان
وجشا الجن روعة واستكانوا
فهو بحر من الهوى وأمان كل حي إليه يبغي الفرار (١)

إن « قصة الظلام » قصيدة لها مقدمة من النثر ولكنه نثر أقرب إلى الشعر الرومانسي في معجمه « مع الأرض في ظلمها وظلامها قبل انبثاق النور الأعظم ومع أول شعاع تبلجت به سماء العرب ، وأشرقت به حقيقة الإنسان . مس جبينه الخاشع للحجر ، فارتفع لله ، وظهره المقوس للطغيان ، فسواه للكرامة ، وبصره الضارع للظلم ، فأعلاه للحق ، وقيده الصاغر للبطش فأحاله أجراس حرية وكان للعرب رسول وحدة وتوحيد ، ألف القلوب على السلام والحب ، وشد الزمام إلى الإباء والعزة ، وشق في غياهب الوجود طريق الفجر ، تتألق به راية النصر ، وتتوهج به جنوة الكفاح ، وترحف به مواكب النضال إلى شاطئ النور » .

وهكذا كانت هذه القصيدة قصة الصراع بين النور والظلام وانتصار الحق والهدى . ومن الواضح أن وحدة القصيدة الفقرة لا البيت ، وذلك منهج في بناء القصيدة كأن البيت قد استطل وامتدت فكرته حتى نهاية الفقرة ، ثم تنوعت القوافي من فقرة إلى أخرى كالموشحات والفقرة الأولى تحكي عن نار المجوس ولم يقل إن نار المجوس قد انطفأت كما قال الذين من قبله ، ولكنه يحكي قصة النار معبراً عن حيرته أمام عبادها من المجوس حين طافوا حول وهجها سكارى كأن إبليس قد سقاهم نشوة حبها . فكل فقرة صورة التقطها مصور ولكنها صورة متحركة فترى صورة الصنم المعبود وفي النهاية تهب الريح عاصفة فيقع ويتحطم ، ثم صورة عابد النجم ، وكلها تعبر عن الحيرة في البحث عن الحقيقة وإن بدا مظهرها مستقراً ثم يظهر الرسول والقرآن معجزته الخالدة ، فيصور تهاوي الكيان عجزاً أمام أسرار إعجازه وخشوع الجن رهبة وروعة ، وإقبال البشر يبحثون عن الهدى في رحابه ، ولذلك ما يزال الزمن يكبر هاتفاً بجلال آياته .

هذا المنهج في العرض نجده في قصيدة « جنازة الوثنية » وقد اتخذ شكل حوار بين اللات والعزى ومناة تخر فيها الأوثان ساجدة في النهاية فتتحطم . وفي قصيدة « معجزة العنكبوت »

(١) نار واصفاد ص ١٦ .

نرى مشهداً غنائياً أبطاله العنكبوت والحمامتان والثعبان ، وهكذا لونت الرومانسية السيرة النبوية بألوانها الثرية وأعطتها مذاقاً جديداً في الصور والبناء الفني .

وبهذا التنوع الخصب نستطيع أن نقول إن المدائح النبوية في الأدب العربي تقف على قدم وساق في مقابل المدائح النبوية في أدب العجم . ففي بحث للعلامة « أبو الحسن الندوي » (١) يقول : إن اللغة الفارسية هي أغنى ثروة وأسعد حظاً في المدائح النبوية من غيرها ، وتليهما أردو التي هي سليلة الفارسية وإن ما قيل في إيران والهند في هذا الموضوع يمتاز عن غيره قوة وتأثيراً ورقة وعضوبة ، وقد تجلت فيه العاطفة أقوى وأروع منها في غيره . وقد ابتكر هؤلاء الشعراء معاني وأخيلة ، وجاؤوا بتعبيرات لم يسبقوا إليها « ويعلل ذلك بالمزاج الإيراني والهندي فطبيعة الفرس والهند طبيعة الحب ولغتهم لغة الغزل ، فلما انصرف ذلك كله إلى شخصية خصها الله بأعظم معاني الحسن والإحسان وأكبر مظاهر الجمال والكمال جاء بالعجب العجاب ويضيف أن البعد عن الجزيرة العربية كان له تأثيره فاستعاضة الشعراء عن الرحلة - حين كانت قوافل الحجاج تتعرض للغارة - بالتعبير عن حنينهم وأشواقهم . ثم يعرض أهم ما أتى به شعراء العجم من جديد في الصور والمعاني . « إن اليتيم الذي نشأ أمياً وعاش أمياً ، ولم يقرأ القرآن في كتاب استطاع أن ينسخ مكاتبات شعوب كثيرة فتفقد قيمتها وحيويتها ، وينشئ مكتبة جديدة كانت مصدر العلم والعرفان » هكذا قال الشيخ سعدي صاحب كلستان معبراً عن النقلة الإسلامية التي فاقت كل نقلة في القديم والحديد في عالم الأديان والأخلاق والعلوم والآداب والقيم والمفاهيم على يد أمي إنه لغز لا يحله إلا الإيمان بالقدرة الإلهية .

أما زعيم الشعر الإسلامي الحديث - عند العجم - الشيخ الطاف حسين فقد أحسن تصوير الواقع التاريخي في قوله : « لقد خص من بين النبيين بلقب (رحمة للعالمين) وهو الذي كان من دأبه إسعاف حاجات الفقراء وتحقيق رغباتهم المكنونة ، كان مأوى الضعفاء وولي الأيتام ومربي العبيد والأرقاء ، يصفح عن الأخطاء ويحسن إلى من أساء ، يوحد القبائل المتناحرة ، ويؤلف القلوب المتنافرة . أقبل إلى الأمة العربية التي كان يخيم عليها الجهل من قرون فأحدث فيها ثورة جذرية ، انقلبت بها أوضاعها وتغير بها محرى التاريخ ، فقد ظل

(١) مجلة الأزهر فبراير ١٩٧٩ م .

هذا المعدن الكريم مطموراً مغموراً في التراب ، وتحت ركام الجاهلية لا يعلم أحد قيمته وغناه ، وقد أصبح ما طبعه الله عليه من أوصاف وفضائل ضائعاً عاطلاً فما وقع نظره على ذلك وما هبت عليه نفحة من نفحات بعثته حتى تلاً نوراً وصفاء وأصبح ذهباً خالصاً . إن الحجر الذي رفضه كل بناء وزهد فيه كل معمار تناوله بيده الكريمة وجعله حجر الزاوية . لقد هاجت سحابة من بطحاء مكة ملأت سمع الزمان وبصره ، وشرق وغرب رعدا وبرقها ، وبينما رعدت على أنهار تاجة في أسبانيا ، أمطرت على نهر الكنج في شبه القارة الهندية ، لقد أحيا غيبتها مزرعة الإنسان الفاحلة ، وعم برها البر والبحر ، فما ترى في العالم من رواء وبهاء ونور وسناء إلا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمدية . والواقع أن كل المعاني والصور التي أتى بها العلامة أبو الحسن لشعراء الهند والفرس طافت بأشعار العرب والفارق الأهم ربما كان في الصياغة لأن حياة الرسول مدروسة معروفة وتاريخ المدائح طويل مشهور على أننا لم ننته من شعر الشعراء العرب ، فما زال أمامنا موقفان ، الأول : شعر النصارى وعلى الأخص نصارى المهجر في الرسول ثم شعر العرب المعاصرين من أصحاب الشعر الحر على وجه الخصوص . فما الرؤية الجديدة التي يمكن أن يضيفها كل منهم إلى التراث النبوي ؟

الواقع أن الدارس لشعر المهجر يجد ظاهرة التسامح الديني واضحة في أشعارهم ، ويعلل الباحثين وضوح هذه الظاهرة في شعرهم باتساع مفهوم الحرية الدينية في العالم الجديد الذي هاجروا إليه . ولكن وضوح مجموعة ظواهر بدرجة واحدة في شعرهم تجعلنا نعيد النظر في هذا التفسير ، فالظاهرة الثانية هي الشعر الوطني والقومي والظاهرة الثالثة هي الحنين . فالموقف كله على هذا الأساس ارتباط بأرض النشأة حيث المسلمون وحيث يعيش الصليب في رعاية الهلال ، على الرغم من بعض الأحداث العارضة التي لا يقرها جوهر الإسلام .

يقول جبران : « أنا مسيحي ولي الفخر بذلك ، ولكنني أهوى النبي العربي ، وأحب مجد الإسلام ، وأخشى زواله لأنني أسكن المسيح شطراً من حشاشتي ، ومحمداً الشطر الآخر » (١) . ويوازن أمين الريحاني بين الكنيسة والجامع فيقول (٢) : « لم أر بين سائر

(١) راجع التجديد في شعر المهجر لمحمد مصطفى هداره - طبعة القاهرة ١٩٥٧ ص ١٢٣ .

(٢) الريحانيات - ج ٢ ص ٥٢ .

أماكن العبادة التي أعرفها أفضل من الجامع . هو المكان الذي يؤثر علي بديمقراطيته أكثر من سواه لما فيه من شعائرها المتنوعة . فليس في الجامع ما يداهن الأغنياء ، أو يكسر قلب الفقراء أو يغفل الورعين أو يرد ثقبلي الأحمال خائنين . وليست بشاشة الجامع بمقاعد المزدوجة - مثل الكنيسة - وليست رغبة الناس فيه لصدقاته والخدمة يوم الجمعة تكاد تنحصر بخطبة مصدرها القرآن ، فهي إذن لحن من البلاغة تعشقه الأسماع فيحدث في القلوب خشوعاً وفي الأفكار نزوعاً إلى العلاء . والجامع ميناء يرتاح إليه الشحاذ والأمير وهيكل يضم المؤمنين ، وناد يقبل أولاد الله على السواء . هو حيث يعثر المنبوذ على حجر يسند إليه رأسه فتكتفه رهبة القبة الواسعة التي تعلوه ولا يحرك السكينة في ذلك المكان إلا كلمات : يا الله ، يا كريم ، التي تدفعها الصدور وقتاً فآخر وأن النفس لتخشع فتدعو الجسد ، وتبهج فتدعو العقل إلى علويات السكون الذي لا يوصف ولا يحد .

« لا صنوج ولا أجراس ، لا آلة موسيقية ولا جوق مغنين ، لا رسوم ولا تماثيل ولكن أضواء الإيمان المشتعلة دائماً تهدي النفس ، فتجد خلال ذلك السكون وتلك الرهبة ، سبيلها إلى العزة الإلهية ، إلى الإله الواحد ، إلى الله . لم لا تكون الكنيسة كالجامع الفسيح المطلق للهواء النقي ، تؤمه حينما تشاء وتبقى فيه ما تشاء ولا حرج عليك ولا قيد ولا ضريبة .

« قد أقيمت الصلاة ولكن الجزء المهم منها لم ينته ، وسيقام في الزقاق الضيق أمام الكنيسة حيث شردمة من البوليس يحفظون نظام العربات الداہبة الآتية ، فيتحرك نحو الباب قطار السيارات الفخيمة المتعددة الألوان وكذلك الأشكال ، يحف بها الحشم وعلى دفتها السائقون الكيسون المتشامخون والعربات تجرها المطهومات فيثب منها الغلمان في الأتواب المقصبة الرسمية يفتحون لأسيادهم الأبواب ويطأطئون الرؤوس للسيدات . غوغاء وغرور ، ضجيج وتصلف معرض مدهش في العبادة ، أبهة وفخفة في الورع والتقوى ، تعال يا أخي المسيحي الفقير ، تعال معي إلى الجامع » .

هذه الروح السمحة كان مسيحيو المهجر ينظرون إلى الأديان السماوية في ضوء تعلقهم بالمشرق وقد عبر رشيد أيوب عن ذلك بقوله :

فمن يا ترى أعلى الورى كمحمد وأرفعهم مجداً وأسمى مناقبا (١)
ويشارك رياض المعلوف إخوانه المسلمين في الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول فيقول
في قصيدة (وحد الله) (٢) :

وحد الله فالوذن وحده
يا رسول الأنام أنت وعيسى
وكفى العرب فخرهم بانتساب
وللشاعر القروي - رشيد سليم خوري - أكثر من قصيدة في محمد صلوات الله عليه ،
فهو مثل زميله رياض المعلوف يحتفل بذكرى المولد الشريف فيقول :

عيد البرية عيد المولد النبوي
بدا من القفر نوراً للورى وهدى
يا قوم هذا مسيحي يذكركم
فإن ذكركم رسول الله تكرمه
في المشرقين له والمغربين دوي
يا للتمدن عم الكون من بدوي
لا ينهض الشرق إلا جنبنا الأخوي
فبلغوه سلام الشاعر القروي (٣)

وله قصيدة أخرى قالها في سلطان باشا الأطرش قائد ثورة الدروز عام ١٩٢٥ (٤) وهي
تمتلى فخاراً بثورته العربية ضد الاستعمار الفرنسي ، ويوازن بين الإسلام والمسيحية ، ويرى
الإسلام دين العصر ، ومن هنا يذكر محمداً صلوات الله عليه ، فيقول مخاطباً سلطان باشا
الأطرش :

فتى الهيجاء لا تعبت علينا
تمرستم بها أيام كنا
فأوقدت لها جثثا وهاما
إذا حاولت رفع الضيم فاضرب
(أحبوا بعضكم بعضاً) وعظنا
واحسن عذرنا تحسن صنيعا
نمارس في سلاسلنا الخضوعا
وأوقدنا المبخار والشموعا
بسيف محمد واهجر يسوعا
بها ذبنا فما نجت قطيعا

- (١) الأيوبيات ص ٢٧ .
- (٢) خيالات طبع سان باولو ١٩٤٥ .
- (٣) ديوان القروي ص ٢٢٥ .
- (٤) نفس الديوان ص ٢٥٧ .

ولعل أبا الفضل الوليد (إلياس عبد الله طعمة) كان أكثر التفاتاً من بقية شعراء المهجر إلى الرسول والرسالة . فقصائده الأولى بديوانه الكبير المشرقية والمغربية والمكية والمقدسية كلها تعرج على الرسول وهكذا في قصائده التالية الأموية والبغدادية والأندلسية يقول في نهاية قصيدته الأندلسية :

يا أحمد المرتضى والمرتجى أبداً ألت من سطوات الروم تحمينا
يا أرفع الناس عند الله منزلة متى نرى السيف مسلولا ليشفيننا (١)

وفي القصيدة الصحابية التي يتناول فيها صحابة رسول الله يسير على نفس النهج ، أعني نهج المطولات التي تتجاوز فيها القصيدة مائة بيت وتتناول قضية الوطن الذي ظل الشاعر يحمل همه في غربته ومن هذا المنطلق يصل إلى أمجاد العرب الأوائل وتعاليم رسول الله قائلاً :

وكيف أوفي خير من وطئ الثرى من المدح حقاً والثناء عياء
إلهية أقواله وفعاله يقصر عن إدراكها الحكماء
دعا قومهم والناس طرا إلى الهدى وللأرض منه في الظلام ضياء

ومن أمريكا الجنوبية يهتف بعروبته وقد أحس الغربية :

أنا العربي بين الروم أمشي غريباً أو أعد من الأسارى
رأيت عروبتى شرفاً وفخراً فبت أود إسلام النصرارى (٢)

وهو هنا قاب قوسين أو أدنى من الإسلام ، ولكننا نراه بعد حين يسلم سنة ١٩١٦ (٤) ، ويتخذ اسم الوليد بدلاً من إلياس ، ويذكر إسلامه في أكثر من قصيدة وفي أكثر من مقالة ، معتزاً بدينه ، مفاخرراً بسيرة رسوله ، مستشفعاً به :

أعاهد ربي أن أصلي مسلماً على أحمد المختار من خير أمة
هداني هواها ثم حب شرعه إلى فصحت مثل حي عقيدي

(١) ديوان أبي الفضل الوليد ص ١١١ .

(٢) ص ١١٣ . (٣) ص ١٢١ .

(٤) راجع إسلامه في كتابه (التوسيع والتصريح) بيروت ١٩٣٤ ص (١) .

فمن قومه قومي أدين بدينه
لأني أرى الإسلام روح العروبة
توسلت بالقربى إليه فلم تضع
لدى العربي الهاشمي شفاعتي
فشرفني بعد العروبة بالهدى
وفضلني بين الورى لقرابتي (١)

أما الاتجاه الأخير في الشعر ، فهو إتجاه أصحاب الشعر الحديد ومن الحق أن أصحاب هذا اللون قد صرفهم اهتمامهم بالاتجاهات الغربية عن التراث إلى حد ما ، ولذلك لن نتوقع التفاتاً إلى المناسبات أو تمشياً مع الخط السابق في المدائح النبوية ، كما انصرفوا عن شعر الأحداث في حياة الأمة ، واتجهوا إلى الموقف الإنساني العام يخللون أعماقه ، مثلما نجد على سبيل المثال في مطولات رائدهم بدر شاكر السياب (الأسلحة والأطفال ، العمياء ، حفار القبور) وكلها قصائد رمزية .

ومن هذا المنطلق ، سوف نجد الرسول صلوات الله عليه يصبح رمزاً كبيراً للجهاد ، للهداية ، لانتصار الحق على الباطل ، للفخار بالانتساب إليه ، وكلها معان سامية تلخص المدائح في إشارات شديدة التركيز :

لا تتركوني فالضحى نسي
من فاتح ومجاهد ونبي
عريية أنا أمتي دمها
خير الدماء كما يقول أبي (٢)

والإشارة إلى النبي هنا جاءت في مجال الفخار بالانتساب إليه فيشعر الضعيف بالقوة والفقير بالغنى ، ومن الغريب أن المطولة من الشعر الحر ولكن الأبيات التي يرد فيها ذكر النبي من الشعر العمودي كأنما العودة إلى الأصول ترتبط في الأذهان بالعودة إلى نسق التراث حيث عاش الرسول والمجاهدون الأول وفي قصيدة « عودة رمضان » يقول غازي القصيبي :
« القدس رجاء ، يطوي ليل الإرهاب إلى ليل الإسراء ، يتحسس رايات محمد ، وكتائبه عبر الصحراء » (٣) وهنا يأتي الرسول رمزاً للمتنقذ حين يدهم الخطب ، ورمزاً للمجاهد ضد الظلم والباطل ، الذي يصرع قوى البغي ويخلصنا ، ورمزاً للتجمع العربي الإسلامي تحت راياته .

(١) ص ٣٦٣ .

(٢) انشودة المطر ص ٢٢٢ . (٣) أنت الرياض ص ١٠٩ .

ومن هذا المنطلق أيضاً تأتي قصيدة « محمد يا رسول الله » (١) وهي من قصائد المولد النبوي ولكنها لا تؤرخ لأحداث السيرة كما تعودنا أن نرى وهي في نفس الوقت من قصائد الديوان التي التزمت النظام العمودي . يقول الشاعر هارون هاشم رشيد :

وددت لو أنني في مولد الهادي أغنيه
وأجدل من خيوط الشمس إكليلاً وأهديه
ومن وهج السنن والضوء والإلهام أسقيه
وأمنحه أعز الحب والأشواق أعطيه
ومن أعماقي المشبوبة اللفهى أناجيهِ
أليس محمد للكون . . كل الكون هاديه

وبداية القصيدة غريبة ، فالشاعر لا يستطيع أن يغني على الرغم من ذكرى يوم المولد ، وعلى الرغم من كل صور الإجلال والحب الذي يبدو في أبياته لهادي الكون محمد عليه الصلاة والسلام .

ونابع القصيدة علنا نجد ما يعوقه عن الغناء ، ولكننا نجده مستمراً في الحديث عن أمانيه (وددت لو أن لي يافا فأجمع كل ما فيها ، من الأزهار أنثرها لمولده وأذريها ، وأطلق في مآذنها تكبيراً تضويها ، ولكن أين لا يافا ولا حتى ضواحيها) .

وتنطلق آهاته ويحس أنه يغوص إلى الأعماق ، فيبحث عن المنقذ ويستشفع به ، فلا يجد أمامه سوى الرسول المنخلص ، وسط خداع العالم من حوله :

محمد يا رسول الله إني ضائع ضائع
وشعبي في مهب الريح مثلي تائه جائع
تقاذفه الرياح الهوج عبر العالم الخادع
فأين رسالة للحق أنت منارها الساطع

(١) حتى يعود شعبنا ص ٥٧ .

وأنت بشيرها للكون أنت المرشد الوداع

محمد أنت نجدتنا وأنت حيينا الشافع

ويتكرر نداؤه « محمد يا رسول الله » في مطلع كل فقرة حتى نهاية القصيدة أشبه بنغمة القرار التي تشد أجزاء العمل الفني ، وأشبه بهتافات الدراويش في حلقات الذكر يساعد على ذلك « بحر الهزج » ولكن ترنحات الدراويش التي تشبه التيار السالب لا تلبث أن تتحول إلى تيار موجب ومنها يتولد التيار المؤثر ، من هذه الهتافات تتولد الثورة :

محمد يا رسول الخير ما في دورنا خير
فقد داهمها الباغون قد باغتها الشر
فإن لم تُرفع الرايات إن لم يهدر الثأر
ليغسل عار ما صنعوا ويمسح رجس ما نشروا
فلا كنا بشعب محمد نسمو ونشتهر

وهكذا يكون الرسول رمزاً للجهاد والصبر دون بأس ، وهنا تتبدل الكلمات من الضياع والتهيب والجوع والضراعة والأحزان إلى هدير الثأر والضمود وارتقاب الزحف والتكبير في مسيرة الخلاص . ولعله قد اتضح الآن أن الشعر المعاصر لم يعد يتخذ مولد الرسول للحديث عن تاريخ محمد صلوات الله عليه كما جاء في السيرة وكما كان يصنع الشعراء من قبل ، ولكنه يتخذ من مولد الرسول رمزاً لموقف عربي فيه ربط بين الماضي والحاضر ، ومن أجل هذا لا يشدو الشاعر المعاصر ولا يغني غناء الشاعر السابق ، فقد أصبحت همومه أكبر من الغناء وأصبحت رؤيته للتراث استلهاً التراث وترميزه ليصبح أكثر قدرة على العطاء من مجرد العرض والسرود . وكان الرسول صلوات الله عليه الشعلة التي حملها الشعراء في كل اتجاهاتهم الفنية المعاصرة .

كان من الممكن أن تكون الألياذة الإسلامية أو ديوان مجد الإسلام لأحمد محرم أخطر عمل شعري تناول الرسول عليه السلام قديماً وحديثاً . فهي محاولة لعرض السيرة النبوية شعراً منذ مولد الهادي حتى وفاته وتبدأ بداية قوية بمطلع النور حين اشتد الظلام .

املاً الأرض يا محمد نورا واغمر الناس حكمة والدهورا
حجبتك الغيوب سرّاً تجلى يكشف الحجب كلها والستورا

ثم يتناول الشاعر جهاد الرسول وإغراء قریش له بالمال والجاه وإعراضه عليه السلام عن كل إغراء وتحمله الأذى في سبيل العقيدة ، وعبادته ومن اتبعه من القلة المؤمنة لله سرّاً في دار الأرقم حتى أسلم عمر ، فجهروا بدينهم . ولكن الدارس للديوان يعجب كيف أفلت من الشاعر المواقف المليئة بالصراع مثل موقفه في الطائف وصره على الأذى وشكواه إلى الله وموقف عمر من إسلام اخته وإقباله على دار الأرقم واعتزاز حمزة بنفسه وشجاعة الرسول ثم إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيرها .

إنها مواقف تهب مشاعر البشر ويجد فيها الشاعر الصراع النفسي والخيال الشعري والموقف الإنساني الذي يرتفع عن مجرد السرد . وتتوالى قصائد الديوان تحت عناوين جانبية ويتغير الوزن وتتغير القوافي فيها هو ذا الرسول في طريقه إلى المدينة بعد أن مكث بضعة أيام في غار ثور وبعد أن قدم الشاعر لكثير من قصائده بمقدمات نثرية .

أقبل فتلك ديار يثرب تقبل يكفيك من أشواقها ما تحمل
طال التلوم والقلوب خوافق يهفو إليك بها الحنين الأطول

إن أجمل ما في شعر أحمد محرم صدقه ، فهو لا يحكي عن أهل المدينة في تطلعهم إلى وصول الرسول وحسب ، ولكنه يعبر عن أشواقه هو ، على الرغم من ارتفاع النبرة التي نلاحظها في الديوان كله - ثم نقرأ هذه العناوين كأننا نتابع السيرة صفحة صفحة : المهاجرون في ضيافة الأنصار مسجد المدينة ، أبو بكر يؤدي ثمن الحائط الذي أدخل في المسجد . . . وبعضها موضوعات غير شعرية كما نرى .

ثم حكى عن غزوات الرسول فيبدأ بغزوة بدر وتتوالى الغزوات في الأجزاء الثلاثة الأولى دون أن نجد في غزوة واحدة النفس الملحمي الذي نراه عند المتنبي مثلاً ، أما الجزء الرابع فيتحدث فيه الشاعر عن السرايا ، وينتهي بسرية أسامة بن زيد والرسول على فراش الموت .

لكل هذا رأى بعض النقاد أن الديوان يقترب في بعض فصوله من المتون . وعلى الرغم من ذلك فهو عمل ضخم يفتح الباب أمام شعراء المطولات المبهورين بأعجاز الإسلام .
ابتلعت السيرة كل الأجناس الأدبية الأخرى السيرة القصصية والسيرة المسرحية فهي أكثر الفروع إشراقاً في تناول الرسول .

والحديث عن النثر الفني في موضوعنا « الرسول في الأدب العربي الحديث » يعني تناول السيرة الأدبية في الدرجة الأولى ، وليس من العسير ملاحظة الحركة الصاعدة للسير الفنية التي تناولت حياة الرسول صلوات الله عليه ، في ضوء أحداث العصر نفسه . ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى واقتسام الاستعمار لبقية الدول العربية ، ظهرت الدعوات التبشيرية في صورة غزوات ضخمة وظهر فيها اسم قسيس عرفته مصر قبل الحرب العالمية الأولى في جولاته التبشيرية وهو « زويمر » الذي كان رئيساً لإرسالية التبشير العربية في البحرين ، عاد اسمه للظهور مرة أخرى ، وكثر حديث الصحف المصرية عن جرأته على الإسلام في بلده ، حتى أنه ليخطب في الأحياء الوطنية التي لا يسكنها إلا المسلمون ، حاثاً الناس على اعتناق النصرانية وبدأ المسلمون ينتبهون إلى ما يهددهم من خطر ، فكتب محمد عبد الله عنان في صحيفة « السياسة » منبها إلى مؤتمر المبشرين الذي انعقد سنة ١٩٢٩ ببيت المقدس في قلب العالم الإسلامي وتحت سمعه وبصره ، لافتنا النظر إلى أن كنيسة روما قد خصصت ملايين الجنيهات لشد أزر الجهود التبشيرية وتنصير المسلمين كما نبه إلى سياسة فرنسا في المغرب التي تجري على فصل البر عن العرب وإخراجهم من العالم الإسلامي . وألغت تدريس الدين واللغة العربية في مناطق هذه القبائل ، وهي تزعم أنها دولة لا دينية ونبه الكاتب كذلك إلى جهود البعثات التبشيرية في السودان وقال إنها تجد تشجيعاً من الإنجليز .

وقد صور الدكتور هيكل التطور الذي حدث في تعليقه على كتاب « وجهة الإسلام » الذي نشره « جب » سنة ١٩٣٢ ، فقال : إن الذين درسوا في أوروبا كانوا هم رسل الحضارة الغربية الداعين إليها ، ظناً منهم أن ذلك هو السبيل إلى نهضتها ، وأن هؤلاء الشباب قد تفتحت أعينهم على حقيقة الأمر بعد الحرب ، فقد أدركوا أن كل ما بذلت الشعوب العربية من توضيحات لم يكن إلا في سبيل الاستعمار ، وأدركوا أيضاً أن الدول الأوروبية التي تزعم أنها قد تحررت من التعصب الديني هي دول متعصبة تعصباً مسيحياً ، لم تنس معه الحروب

الصليبية حتى أن قائداً كبيراً من قوادهم وهو « النبي » قال يوم استولى على القدس : « إن الحروب الصليبية قد انتهت اليوم » ، ثم إن الدول الأوروبية شملت بحمايتها الجماعات التبشيرية المنبثة في كل مكان ، وعند ذلك غضب هذا الشباب لإسلامه .

ومقدمة هيكل لكتابه (في منزل الوحي) (١) من أوضح الأمثلة على هذا التطور ، فهو يرد على صحبه الذين يقولون : إنه أصبح بعد تأليفه (حياة محمد) رجعيّاً وكان في طليعة المجتدين فيقول : « ولقد خيل إلى زمنا كما لا يزال يخيل إلى أصحابي أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض ، وما أزال أشارك أصحابي في أنا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله ، ولكن أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله ، فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا غير ثقافته ، خضع الغرب للفكر الكنسي على ما أقرته البابوية المسيحية . . كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ؟ لا مفر إذن من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ما ضينا هذه الحياة الروحية » إنها أمه ،

أفقدنا الاستعمار توازنها وبعد صدمته حاولت الأمة أن تبحث عن شخصيتها : في الغرب ؟ في الإسلام ؟ في كل اتجاه .

وبدا أن هناك وعياً إسلامياً جديداً قد استيقظ في نفوس المسلمين (٢) وجذب هذا التيار كثيراً من كبار الكتاب ، فظهر كتاب (على هامش السيرة) لطف حسين سنة ١٩٣٣ ، وظهر كتاب (حياة محمد) لهيكل سنة ١٩٣٥ وكتاب (عبقرية محمد) للعقاد في نفس الوقت ، وتوالى الكتب الإسلامية بعد ذلك .

والحقيقة أن كتاب (حياة محمد) لهيكل يعتبر من أوائل الدراسات الجادة في أدبنا المعاصر التي تمثل التشكيل الجديد للسيرة . ولكن إلى أي حد يبتعد الكتاب عن منهج السيرة لابن هشام وعن الدراسة التاريخية أو إلى أي حد يقرب من مناهج السيرة الفنية ؟ يقول

(١) طبع الكتاب سنة ١٣٥٦ (١٩٣٦) بعد ظهور كتابه (حياة محمد) بعام واحد ويصف فيه رحلته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج .

(٢) راجع الاتجاهات الوطنية ج ٢ ص ١٤٥ - ١٦٠ .

المؤلف في مقدمته « إنني أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة وأكتبه بأسلوب العصر ، وإنني أفعل ذلك لأنه الوسيلة الصالحة في نظر المعاصرين لكتابة التاريخ وغير التاريخ من العلوم والفنون ، وما كان لي وذلك شأني ، أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها وبين هذين وبين النهج والأساليب في عصرنا الحاضر بون عظيم ، أيسره أن النقد في الكتب القديمة لم يكن مباحاً بالقدر الذي يباح به اليوم ، وإن كثرة الكتب القديمة كانت تكتب لغاية دينية تعبدية على حين يتقيد كتاب العصر الحاضر بالمنهج العلمي والنقد العلمي . . وما أشك في أن التعمق في البحث يكشف عن أسرار كثيرة ظن الناس زمناً أن لا سبيل إلى تحليلها علمياً ، ثم إذا مباحث علم النفس تفسرها » .

إن المؤرخ المعاصر يعتمد على الوثائق الثابتة فيسجل الأحداث ويربط بينها ويفسرها ، ولكنه لا يلجأ إلى علم النفس ولا يستخدم نتائجها لأنها قائمة على فروض غير ملموسة ، أما كاتب السيرة فيستفيد من علم النفس ويعتمد عليه في الكشف ويستغله في النجوى . والتزام المؤلف للمنهج العلمي نتيجة لطبيعة العصر من ناحية ، ونتيجة لموقف بعض العلميين الذين يشككون في كل ما لا يثبت علمياً من القضايا الدينية فهو يصطنع هذا المنهج الذي يبدأون به ليدحض حججهم أو ليرد إليهم يقينهم . ويتتبع حياة الرسول من الميلاد مناقشاً بعض الأمور كشق الصدر والعنكبوت والحمامة ثم ينتقل إلى الإسراء والمعراج فيقرر أن العلم الحديث يقرهما على أن تكون الشخصية كشخصية الرسول تسمو عن ماديات الحياة وبمثل هذا المنهج يسير مع حياة الرسول إلى النهاية .

ويلجأ هيكل إلى تجاربه الخاصة وهي خاصية قصصية استغلها كتاب السيرة فيعرض لموقف الرسول حين دخل بيته والتراب على رأسه بعد أن اعترضه سفيه من قريش ، فقامت إليه ابنته فاطمة تغسل عنه التراب وهي تبكي (وليس أوجع لنفوسنا من أن نسمع بكاء بناتنا ، فكل دمعة ألم تسيل من مآقي البنت قطرة حمم تهوي على قلبنا فينقبض انزعاجاً) . ويلجأ المؤلف إلى الحوار يخفف به حدة الدراسة مثل الحوار بين خالد وعكرمة حين أسلم خالد . كما لجأ إلى الروح القصصي في بعض المواقف ، فحين فرت القبائل المسلمة يوم حنين ، يتحدث عن الرسول قائلاً : « ماذا تراه يصنع ؟ افتنحى عنه ربه وتخلي عنه نصر الله؟ كلا ، لن يكون هذا ، دون هذا تبيد أُمم وتفنئ أقوام ، ودون هذا الموت يدخل محمد في

غمارة لعل في الموت لدين الله نصراً . وهكذا نستطيع أن نقول في النهاية إن « حياة محمد » يمثل مرحلة في تطور تاريخ الشخصيات وتحولها إلى سيرة لها خصائصها الفنية في أدبنا الحديث .

وفي نفس الوقت كانت محاولة طه حسين في كتابه « على هامش السيرة » وهي محاولة أكثر أصالة في فن السيرة الأدبية ، فقد اصطنع المنهج الروائي وتبعه من بعد في نفس المنهج عبد الرحمن الشراقوي في كتابه « محمد رسول الحرية » وعبد الحميد جودة السحار في كتابه « محمد رسول الله والذين معه » ومحمد شوكت التوني في كتابه « محمد في طفولته وصباه » ومعروف الأرنؤوط في كتابه « سيد قریش » وبنيت الشاطي في كتابها « مع المصطفى » وغيرهم .

يقول طه حسين في مقدمة « على هامش السيرة » موضحاً منهجه الفني « وأحب أن يعلم الناس أنني وسعت على نفسي في القصص ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد بأساً إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي أو بنحو من أنحاء الدين ، فإني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة » .

ويقول السحار في تذييل كتابه « محمد رسول الله » : « فأعجبتني طريقة الدكتور في السرد ، وجعلتني أعيش بكل جوارحي في ذلك العصر الذي استطاع الدكتور طه ببراعته أن يجعله ينبض بالحياة ، اخترت أن أكتب السيرة بأسلوب قصصي ، وأنا على علم بما يعاينه كاتب التاريخ من مشقة إذا حاول أن ينهج في كتابه نهج القصة ، فإنه سيشتقى في سبيل دراسته أشخاص السيرة دراسة دقيقة ليرز ملامحها وجوانبها ، وسيبذل كل الجهد لتصوير الحياة اليومية والمعتقدات والديانات السائدة بأدق تفاصيلها وتفاعل الشخصيات مع البيئة ، والاعتماد على الخيال في سد الثغرات والفجوات التي تعترض التسلسل الزمني ، على أن يتناسق الخيال مع المادة التاريخية ليرز جوهر الحقيقة ويعين على استقراء الأحداث لتوفير التسلسل المنطقي حاولت جهدي أن أحافظ على الحقيقة التاريخية ، فما من حادثة دونتها إلا ولها سند ، وقد محصت الروايات المختلفة وأخذت أقربها إلى المنطق وروح الدعوة » (١) .

ومن الواضح أن المنهجين متشابهان فقد لجأ كل منهما إلى الحوار في كثير من المواقف

(١) محمد رسول الله - ص ٢٢٦ .

بدلاً من المادة التاريخية الصلبة والعرض الروائي وملء الثغرات بالاستنتاج التاريخي ، لأن كاتب السيرة يسير حقيقة على حافة السكين ، فإن أعمل الخيال كان عمله قصة تاريخية ، وإن ترك الأسلوب الروائي كتب تاريخاً . وهذا المنهج في الحقيقة صاحبه الكاتب الإنجليزي « ستريثي » طبقه في سيرته عن الملكة فكتوريا وتأثر به الفرنسي « أندريه موروا » فطبقه في سيرة عن الشاعرين شيلي وبيرون والروائي دكنز والسياسي دزرائيلي .

وإذا استعرضنا هذا اللون وجدنا الأمر هنا يختلف عن السيرة الموروثة لا من حيث تخليصها من الإسناد وحسب ، فتلك ظاهرة شكلية ، ولكن السيرة الجديدة قدمت لنا المشاهد والحوار والأبطال واضحين ، يمثلون جوانب الخير والشر ، وتشابك الأحداث تشابكاً طبيعياً ، في بيئة مجسمة بأرضها وسماؤها وجبالها وعاداتها وتقاليدها وخلق أهلها وطباعهم كل هذا من خلال السيرة نفسها ليست المسألة إذن مسألة إسناد ، ولكن ما يستتبع ذلك من أخبار تجزأت هناك ، وتكاملت هنا ، ومن هنا ندرك أبعاد الشخصيات ونحس بما يضطرب في نفوسها وما يسيطر على عقولها فتتحرك وتتطور كل ذلك من خلال تتبع حياة الرسول صلوات الله عليه .

وإذا حاولنا أن ننظر إلى أحد المواقف لندرى كيف تناولته هذه الكتب المحدثه وجدنا نصاً دالاً للشرقاوي ، والموقف هو النذر الذي نذره عبد المطلب وأراد تحقيقه بذبح ولده عبد الله ، فهو موقف بطبيعته يصلح للدراما وقد رواه طه حسين من خلال حوار قصصي . ومن المؤكد أن الدموع قد سالت من أعين كثيرة وأن كثيراً من الحوار قد دار في مكة حين هم عبد المطلب بذبح ولده عبد الله وأن الاحتكام إلى الكاهنة كان نتيجة مشادة وحوار ، ومن هنا كانت الصياغة الروائية هي الإطار لذلك الأساس التاريخي . أما الشرقاوي فقد استخدم « النجوى » ليعمق الموقف أو يوضح جزئياته . وقد تخلص الشرقاوي من أسلوب السرد المطول الذي لا يدل في كثير من الأحيان إلا على مقدرة أسلوبية أما « النجوى » فهي على مدى السيرة عنصر بناء ونمو .

« ها هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى بعد نضال طويل مع المصير لكأنه يولد فجأة من جديد ، بكل فتوته وأشواقه وأحلامه وقامته المديدة وصوته الطيب المفعم وأمله المعذب في الخلاص » بهذه البساطة رسم لنا الشرقاوي خطوطاً عامة للملاح عبد الله ، ثم يتضح عنصر

« النجوى » في الجزء التالي : « أية مقاومة يملكها فتى مثله أمام هؤلاء الأرباب ؟ أيملك هو عبد الله بن عبد المطلب أن يطلق صرخة احتجاج على هذه القوى التي تحرس الكعبة منذ القدم والتي ما يزال يمثل لها - مع أبيه - كل الملأ من قريش ؟ على أن المصادفة أنقذت حياته على أية حال بعد ما أوشك دمه أن يسيل تحت أقدام تماثيل الآلهة الرهيبية التي تجرؤ على أن تحرم فتى في مثل سنه وعنفوانه من طيبات الحياة ، وإنه الآن ليتشبث بيد أبيه عبد المطلب ، ليمضي معه إلى الدار بعد أن وهب الحياة مرة أخرى ، وكأنه يوسف الذي سمع قصته فيما سمع من قصص الغابرين خلال رحلاته مع القوافل لكأنه يوسف يرتمي في أحضان أبيه الصابر المضنى ليستمتع بدفء الأبوة بعد طوافه الطويل المشرّد في أرض الغربية » (١)

الصراع هنا واضح في نفسية الفتى ، فالمصادفة وحدها هي التي تخط أقدار الرجال ومن ورائها تماثيل مائة ، آلهة بلا قلب تملك القضاء ، فهل يملك أن يقاوم ؟ ولا شك أن عبد الله لم يكن وحده يحاول الإجابة عن هذا السؤال . ولا شك أن التمرس بالرواية تمكن كاتب السيرة من تشكيل حياة شخصياته داخل هذا الإطار بل تغريه إغراء باختياره . إنها قصة واقعية سجل التاريخ وقائعها ، وأعدت السيرة تصوير أفعالها . وقد لجأ الشرقاوي أيضاً إلى نجوى الذات ، حين عرض لموقف الرسول من المجتمع المكي بما فيه من استبداد القبوي بالضعيف وفساد يستشري في صورة عبادة الأوثان وترف المترفين وذل العبيد ، وخوض الناس حتى الأذقان في الخطيئة مما يكاد يستحيل معه الإصلاح . وهو مضطر إلى هذه النجوى ، فليست أمامه الوثائق التي ترسم صورة مفصلة لضيق الرسول بكل ذلك ، وإن كنا نعرف إجمال هذا الضيق ، ولكن الكاتب هنا لا يدع الفرصة تمر دون التركيز عليها واستغلالها من أجل تطور السيرة . سوف نناجي أنفسنا نحن أيضاً ونغضب لغضب الرسول ونؤمن بإيمانه بتغيير المجتمع المتفسخ وبناء مجتمع العدل والهداية والفضيلة ، وبذلك تؤدي النجوى دورها المرسوم حين يقول : (٢) « التجار في مكة هم حماة أوثان الكعبة التي تقضي لهم بإذلال الآخرين ، أما في الشام فالأمر مختلف ، هناك المسيحية : فما بال الرجل يلطم أخاه على كل خد ويأخذ ما ليس له ، وما بال المستكبرين هم وحدهم الذين يستمتعون بالحياة كأنما هي ملك لهم وحدهم وما بال الخيرين يحترقون في كبرياء الأشرار ؟ ولكن الحياة ليست هي

(١) محمد رسول الحرية - ص ٧ .

(٢) ص ٢٩ .

البيت الذي يعيش فيه الرجل ، ليست هي - فحسب - الزوجة المحبة الصالحة ولا الأولاد الذين يملأون القلب بالرضا ، إن الأمن ليعمر البيت ، هذا حق ، ولكن الحياة من خارج بابه تضطرم بما يمزق القلب المطمئن ، عالمك العريض الذي تعيش فيه لا هدوء فيه بعد ، ولا شيء منه تطيب له النفس . فهو هنا قد حول الأفكار إلى كلمات ثم عاد فحوّلها إلى انفعالات تتخذ صورة مجسدة - وهكذا لم تغفل أعيننا عن شخصية صاحب السيرة لحظة واحدة وذلك بخلاف منهج آخر قد يلجأ إليه الكاتب فيذكر مثلاً أن الوضع في الجزيرة العربية كان منهاراً بدليل كذا ، فهنا يبعد الكاتب عن شخصية صاحب السيرة ويقودنا إلى سجلات التاريخ وفضلاً عن الأسلوب التقريري الجاف أحدث الانفصال بين القارئ وبين شخصية صاحب السيرة وأصبح الربط بين الوضع الاجتماعي وبين أعمال صاحب السيرة لتغيير هذا الوضع ربطاً خارجياً ليس نابعاً من الداخل .

أما النموذج الثالث للتشكيل الجديد فهو « العبقريات » للعقاد ويذكر العقاد في تقديمه « لعبقرية محمد » أنه قبل نشر السيرة بثلاثين عاماً ، جرت مناقشة اشترك هو فيها حول كتاب « كارليل » وأن المتناقشين قد أكبروا كارليل الذي أنصف الرسول ، واستقر رأيهم على أن الأولى بواحد منهم أن يكتب سيرة محمد . وقد تأثر العقاد بمذهب كارليل . تأثره بالزرعة الروحية في تفسير التاريخ بالشكل الذي يبدو واضحاً في عبقرياته . وهو يذهب إلى أنه في كتابه سيره يهدف إلى رد الاعتبار للجانب الروحي الخالد في مقابل لوثة المادة ومهانة الإنكار العقيم . وكارليل يعدد صفات محمد عليه السلام فيراه مخلصاً أميناً عزوفاً عن السلطان ونعيمه ، شجاعاً في الحروب ولكنه يؤثر السلم على الحرب ، رحيماً حتى ليبيكي على قبر صاحب أو يغفر عن أساء إليه ولكن مفتاح شخصيته هو رؤية بواطن الأمور ، لا يحجب ذلك عنه حجاب والمقدمات تلقي الأضواء على منهج الكتاب ، ومن أجل هذا نتوقف أمام مقدمة العقاد حيث يقول : « فسيرى القارئ أن عبقرية « محمد » عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة ولا يتعدها فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف إلى السير العربية والأفرنجية التي حفلت بها المكتبة المحمدية حتى الآن لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في الصفحات . . إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى » . . معنى هذا أنه لا يكتب سيرة بالمعنى التقليدي ، أي أنه لا يتتبع حياة الرسول من البداية إلى النهاية ولكنه يتخذ منهجاً آخر تعترف به تشكيلات السير ، هو منهج

الاختيار في حدود الفكرة التي حددها . فالرسول عظيم في دعوته الدينية عظيم في قيادته العسكرية ، عظيم في سياسته وإدارته ، عظيم في أبوته . « فعبقرية محمد » فصول مستقلة يجمعها رابط منهجي وتسير كلها إلى هدف واضح . وعلى الرغم من منهجية العرض ، فنحن نحس أن العقاد يكتب وهو منفعل جياش الشعور في كل فقرة . وهو يريد أن يجلو العظمة الإنسانية كما يفهمها البشر في حدود المادة الموثوق بها ، وبهذا الاستناد إلى حقائق التاريخ والاعتماد على طبائع الأشياء ، يرسم العقاد ارهاصات النبوة ، بلا استعانة بما هو ليس في حاجة إليه مما يؤمن به المؤمنون عن تسليم ويتلقاه المحبون في تعاطف ومودة ، فهو يخاطب عقولاً يتخيل في كل كلمة أنها تناقشه وتساءله الحساب ، ولا تقبل فيه إلا ما يسيغه العقل ، فيروح في حماسه وإخلاص يقيم الدليل إثر الدليل والحجة بعد الحجة على صحة ما آمن به من رسالة محمد ، حتى لتغدو آخر الأمر ضرورة حتمية تتطلبها طبيعة الأشياء ، وتسوق إلى حدوثها مجريات التاريخ . وهكذا رسم العقاد شخصية محمد كما فهمها وأحسها ، وقد امتزجت في شخصيته النبوة والرجولة والإنسانية ، كل منها كاملاً غير منقوص ، وكل منها في أجمل مظاهره وأكمل نواحيه ، فغدا مزيج هذا كله عبقرية خالدة للنفس البشرية المتكاملة ، النفس التي ترسم بتصرفاتها منهاجاً يحتذى » (١) .

وهذا التشكيل هو أقرب التشكيلات إلى الصور الجانبية ، فالكاتب ينتقي جوانب معينة كلها تتجمع في النهاية وترابط لتشكل قطاعاً من الشخصية ولعل مفتاح الشخصية هو مركز التجمع ومحور الترابط بين هذه الجوانب وعبقرية محمد في ضوء هذا المفهوم تعتبر من السير التحليلية ، فالعقاد لا يقوم بعملية تركيبية مثل كتاب السيرة ، ولكنه يحلل كل صورة يقف عندها ، فمن المعروف أن الرسول - على سبيل المثال - قاد أكثر من معركة حربية فلا يجيء العقاد هنا فيسرد ما قيل في الموضوع ، ولكنه يعتمد على تحليل عبقرية الرسول الحربية فيتوقف أمام طريقته في اختيار المكان أو اختيار رئيس الفرقة وتزويدها بالوصايا ، ويكشف عن خبرته في الاستطلاع وتجنيد لكل قوة في يديه سواء أكانت قوة رأي أو قوة لسان أو قوة نفوذ . وهذا التشكيل يمنح الكاتب حرية أكبر لأنه يستخدم في التحليل ثقافته العامة ، وإن كانت هذه الحرية مقيدة بخدمة الموضوع ، غير أن التشكيل الروائي أقرب إلى روح السيرة من حيث تركيب الشخصية كاملة .

(١) محمد (فاروق خورشيد واحمد كمال زكي) ص ٢٢ .

أما النموذج التالي للتشكيل الجديد ، فهو بالضرورة التشكيل المسرحي مادمننا قد ذكرنا التشكيل الروائي . وفي هذا اللون نجد « محمد » لتوفيق الحكيم « والزيتونة » لخالد الشواف . يقول الحكيم في مقدمة المسرحية : « ولقد قصد بوضع هذه السيرة عام ١٩٣٦ في قالب الحوار المحافظة على الصور التاريخية والحرص على إبرازها من واقع الحديث التاريخي نفسه ، كما جرت من الألسنة طبقاً لنصوص الكتب المعتمدة » ولا شك أن اتجاه الحكيم إلى كتابة المسرحية وتمكنه من أصولها وفنياتها هو الذي حدد الشكل الذي عالج به سيرة الرسول . فالقصد إذن إعادة كتابة السيرة مرة أخرى بطريقة عصرية جديدة وبشكل أدبي لم تكتب به من قبل وقد نجح الكاتب في عرض هذه السيرة عرضاً حوارياً ، ففيها من التشويق والإقناع ما يؤكد ذلك والحكيم الفنان قد أحس إحساساً عميقاً بمحمد الإنسان يقف ثابتاً قوياً أمام كل الأحداث المثبطة المعوقة فيتغلب عليها بقوة إيمانه وجدده وصبره ، شخصية الداعية الصابر هزته فعبير عنها . والحكيم الكاتب الدرامي قد بهره ما في المعجزة من خصوبة فعبير عنها ، وهناك جوانب معينة ركز توفيق الحكيم الأضواء عليها أكثر من غيرها - بعد شخصية الرسول - مثل أحداث الموت ، موت عم الرسول وولده ، فالموت هز الحكيم نفسه ، كذلك العلاقة بين الرسول الإنسان وبين زوجاته ، وقد وجد في السيرة من صور البطولة ومن صور الإيمان ما انفع به .

وهكذا استطاع الحكيم أن يكتب سيرة ناجحة في إطار جديد ، لبس ثوب المسرحية من حوار ومناظر وفصول ، وأن يعبر بهذا البناء عن وقفة فنان معاصر أمام الشخصية الإسلامية الأولى . وإذا كان الحكيم قد كتب مسرحيته نثراً فإن « الشواف » الشاعر قد كتب مسرحية شعرية . والواقع أن الحكيم بمقدرته الفنية استطاع الإمساك بالمواقف الدرامية المثيرة مثل موقف أبي سفيان وهو يتعجب أن ينزل الوحي على محمد ويتركه هو كبير قريش ثم وهو يدبر المؤامرة ضد الرسول . وموقف الرسول وهو يبكي يوم مات ولده إبراهيم وموقف المسلمين يبكون يوم وفاته صلوات الله عليه . ولكن الشواف يسير مع السيرة منذ بدأ الإسلام حتى تم فتح مكة وتبها المسلمون للخروج في جيوش الفتح إلى فارس والروم ، ونحس أننا نقرأ قصة لولا المناظر والحوار فما من موقف درامي قوي على كثرتها في السيرة النبوية ، ولكنها على أية حال محاولة طيبة يمكن أن توجه شعراء المسرح إلى ما في السيرة من مواقف كثيرة تصلح أن تقدم للناس .

بقيت ملاحظة أخيرة يمكن أن يختتم بها البحث ، فكما رأينا شعراء المهجر والمسيحيين يحتفلون في كثير من قصائدهم بذكرى مولد محمد عليه الصلاة والسلام ، نرى أيضاً بعض الكتاب من العرب المسيحيين يتناولون سيرته مثل نظمي لوقا في كتابيه « محمد الرسالة والرسول » و « محمد في حياته الخاصة » ونصري سلهب في كتابه « في خطى محمد » ونظمي لوقا في مقدمة كتابه الأول يذكر أن شيخ القرية أقرأه القرآن على عادة الصبية في القرية ومن هذا المنطلق بدأ يحفظ القرآن ويعجب بالرسول ، وقد ترجم إعجابه بطريقة عملية فألف كتابه عن الرسول ، والحقيقة أن الكتاب فيه كثير من الإعجاب والحب ، وإن كان في كتاب نصري سلهب كثير من الفن في طريقة العرض ، وهذه الكتب تضيف مذاقاً جديداً وروية خاصة .

وهكذا يتضح في النهاية أن حياة الرسول ظلت نبعاً يتدفق بالعباء على مدى السنين ، وقد أثرت في الأدب العربي الحديث شعره ونثره بنفس القدر الذي أثرت به في أدب التراث ، غير أن الأدب العربي الحديث أكثر ثراءً وأشد تفنناً ، وإن كانت جهود السابقين في الجمع والاستقصاء والفحص أكبر بكثير ، برغم جهدنا العلمي المعاصر .

المراجع

أولاً - الشعر :

١٩٧٧	القاهرة	غازي القصيبي	أنت الرياض	١
١٩٦٠	بيروت	بدر شاكر السياب	أنشودة المطر	٢
١٩١٦	نيويورك	رشيد أيوب	الأبويات	٣
١٩٦٦	بيروت	هارون هاشم رشيد	حتى يعود شعبنا	٤
١٩٤٥	البرازيل	رياض المعلوف	خيالات	٥
١٩٧٢	بيروت		ديوان أبي الفضل الوليد	٦
١٩٧٨	بيروت	محمد سليمان الأحمد	ديوان بدوي الجبل	٧
١٩٥٢	البرازيل	رشيد سليم الخوري	ديوان القروي	٨
١٩٧٧	الدوحة	أحمد محمد الصديق	ديوان نداء الحق	٩
١٩٥٠	القاهرة	أحمد شوقي	الشوقيات	١٠
١٩٢٧	القاهرة	البارودي	كشف الغمة في مدح سيد الأمة	١١
١٩٥٥	بيروت	أحمد محمد الخليفة	من أغاني البحرين	١٢
١٩٥٩	القاهرة	محمود حسن إسماعيل	نار وأصفاد	١٣
١٩٦٢	بيروت	أحمد محمد الخليفة	هجير وسراب	١٤
١٩٦٩	الكويت	خالد سعود الزيد	خالد الفرج	١٥
١٩٦٣	القاهرة	أحمد محرم	الإلياذة الإسلامية ديوان مجد الإسلام	١٦

ثانياً - النثر :

١٩٥٦	القاهرة	محمد حسين	الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر محمد محمد حسين	١٧
	القاهرة ط ٢	محمد حسين هيكل	حياة محمد	١٨

القاهرة مكتبة وهبة	سعيد حوى	الرسول	١٩
١٩٧١ بيروت	معروف الأرنؤوط	سيد قريش	٢٠
١٩٧٧ القاهرة	عباس محمود العقاد	عبقرية محمد	٢١
١٩٣٣ القاهرة	طه حسين	على هامش السيرة	٢٢
١٩٧١ بيروت	نصري سلهب	في خطى محمد	٢٣
١٩٣٦ القاهرة	توفيق الحكيم	محمد	٢٤
١٩٥٨ القاهرة	نظمي لوقا	محمد الرسالة والرسول	٢٥
	فاروق خورشيد و	محمد في الأدب	٢٦
١٩٥٩ القاهرة	أحمد كمال زكي		
١٩٧٨ القاهرة	محمد شوكت التوني	محمد في طفولته وصباه	٢٧
١٩٦٧ القاهرة	عبد الرحمن الشرقاوي	محمد رسول الحرية	٢٨
دار الهلال القاهرة	(مقالات مجموعة)	محمد نظرة عصرية	٢٩
١٩٧٢ بيروت	بنت الشاطىء	مع المصطفى	٣٠